

خصائص الحاكم الإسلامي أو خصائص القيادة الإسلامية

خصائص الحاكم الإسلامي أو خصائص القيادة الإسلامية

محسن السماوي - قم

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْخَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا سُلْطَانًا وَمَنْ لَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ (1).

وقال تعالى: ﴿... وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَ لَكُمُ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾ (2).

الخلافة والخليفة، والخلائف، كلها مفردات قرآنية وردت في العديد من المواضع والنصوص القرآنية، وورود هذه المفردات في القرآن يوحى على أهمية وحساسية موضوع الخلافة في القرآن الكريم، لذا كانت

موضع اهتمامه من حيث التركيز والتكثيف لوجود الملازمة والرابطة الفكرية والحركية بين الخليفة والمجتمع من جهة، والخليفة وأقامته لأحكامه من جهة ثانية، وهى الميثاق والعهد مع الله تعالى.

قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ...﴾ (3) والميثاق يترتب عليه الاستخلاف وخلافة الإنسان في الأرض، ولكن «هذه الخلافة العامة للإنسان على الأرض ليست مطلقة،

—(520)—

ولا يتمتع بها الإنسان كيفما كان حاله، بل هي مشروطة بأصل التوحيد وأعمار الأرض» (4). وشرطية أعمار الأرض، وتوحيد الله تعالى يستبطن شروطاً وخصوصيات لدى الخليفة القائم على هذا الأعمار لتحقيق معنى العدالة الاجتماعية، وهناك ضوابط وكوابح «حدتها الشريعة من خلال القرآن وسنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام» كوظيفة أساسية لتحقيق مفهوم الميثاق، هذه الضوابط لها قيمتها العملية على صعيد الواقع.. وبما ان الأمة الإسلامية آمنت بالعقيدة الإسلامية كمنهج في حياتها الواقعية فهي بحاجة إلى الخليفة الذي يمتلك خصوصيات قيادة التجربة لإدارة عملية الصراع الحضاري، والسياسي، والفكري، والنهوض بمستوى عمق وطموح هذه التجربة، وستكون هذه الخصائص صمام الأمان في توجيه الخلافة، وتحديد إطارها العام.

يقول الإمام الشهيد الصدر «قدس سره» «الخلافة.. حركة دائبة نحو قيم الخير والعدل والقوة وهي حركة لا تتوقف فيها لأنها متجهة نحو المطلق وأي هدف آخر للحركة - سوى المطلق - سوى الله سبحانه وتعالى - سوف يكون هدفاً محدداً، وبالتالي سوف يجمد الحركة ويوقف عملية النمو في خلافة الإنسان. وعلى الجماعة التي تتحمل مسؤولية الخلافة أن توفر لهذه الحركة الدائبة نحو هدفها المطلق الكبير كل الشروط الموضوعية، وتحقق لها منافعها اللازمة وتصوغ العلاقات الاجتماعية على أساس الركائز للخلافة الربانية» (5).

والسير إلى الله، والعمل على إقامة أحكامه، يستدعي الخليفة التلبس بهذه الخصائص كوظائف مؤثرة في العقيدة والمجتمع. لأن «الله - عز وجل - الذي استخلفه واسترعاه أمر الكون. صفات الله - تعالى - وأخلاقه من العدل والعلم والقدرة والرحمة بالمستضعفين والانتقام من الجبارين والجور الذي لا حد له هي مؤشرات للسلوك في مجتمع الخلافة، وأهداف للإنسان الخليفة، فقد جاء في الحديث «تشبهوا بأخلاق الله». ولمّا كانت هذه القيم على المستوى الإلهي مطلقة ولا حد لها، وكان الإنسان الخليفة كائناً

محددًا فمن الطبيعي أن تتجسد عملية تحقيق تلك القيم إنسانياً في حركة مستمرة نحو المطلق وسير
حيث إلى...»(6).

يقول العلامة الطباطبائي في هذا الصدد: «ومن شأن الخلافة أن يحاكي الخليفة من استخلفه في صفاته
وأعماله فعلى خليفة الله في الأرض أن يتخلق بأخلاق الله، ويريد ويفعل ما يريده الله ويحكم ويقضي بما يقضي
به الله - والله يقضي بالحق - ويسلك سبيل الله ولا يتعدها»(7).

«إذن فهي المشيئة العليا تريد أن تسلم لهذا الكائن الجديد في الوجود زمام هذه الأرض، وتطلق فيها
يده، وتكل إليه إبراز مشيئة الخالق في الإبداع والتكوين، والتحليل والتركيب، والتحويل والتبديل،
وكشف ما في هذه الأرض من قوى وطاقات، وكنوز وخامات، وتسخير هذا كلاً - بإذن الله - في المهمة الضخمة
التي وكلها الله إليه»(8).

إذن فالانصاف بأخلاق الله تعالى من العدل، والرحمة، والعطف، والحنان والشجاعة إلى غيرها من الصفات،
يُعدُّ أحد القواعد الفكرية المهمة لاختيار القيادة في الأمة.

ولما كانت الخلافة والإمامة حالة طبيعية يتم تشخيصها من قبل الأمة في واقعنا السياسي والاجتماعي
المعاصر، فيحتّم على الأمة اختيار الإنسان الذي تتوفر فيه الشروط الموضوعية لتسلم منصب الخلافة
والإمامة في المجتمع والتي أخضعها القرآن الكريم لاعتبارات منطقية، فالاختيار يحتوي على الدقة
الموضوعية، لذا فالقرآن لم يعتبر اختيار الإمامة للأمة يتم من خلال النزعة الشخصية، أو تتم في
الإطار الحزبي الفئوي الضيق، أو أسروي عشائري عشوائي قال تعالى:

﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِن نِّي جَاءَ لُكُ
لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنْدَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾(9).

فهو جعل تشريعي يخضع لاعتبارات وأسس فكرية واجتماعية سليمة، لذا تشكل

عملية الاختيار والانتقاء القاعدة البنيوية والفكرية الثانية في العملية الاستخلافية.

أما ما هي تلك الخصائص الفكرية والأسس الحركية العملية لذلك الاختيار؟

يقع البحث في ثلاثة عناصر بنيوية، تستبطن عدة مفاهيم ورؤى ذات العلاقة بموضوع منصب الخلافة والإمامة.

المبحث الأول: الكفاءة والقدرة والتي تدخل تحتها مفاهيم النضوج العلمي، والحس الاجتماعي، والشجاعة، والأقدام، والانفتاح لبناء العلاقات..

المبحث الثاني: الملامح الأخلاقية العامة كخصائص في الشخصية القيادية. كالمحبة والتواضع، والأسلوبية في التعامل مع القاعدة الجماهيرية.

المبحث الثالث: البناء الفكري والاجتماعي، بناء الأُمة عقائدياً، والرقابة والصيانة الاجتماعية، والمساواة والعدل بين أفراد المجتمع.

المبحث الأول:

الكفاءة والقدرة

1 - العلمية:

لا يمكن أن نتصور لخليفة ريّاني ينهض لقيادة الأُمة عقائدياً، لا يتمتع بمستوى علمي بارز يؤهله في قيادة المسيرة، ومواجهة المشاكل العقائدية والاجتماعية التي تحيط بالواقع الاجتماعي والسياسي.

وقد اختلف الفقهاء في تعيين المراد من الإمام. أو الخليفة من حيث المؤهلات العلمية.

قال ابن خلدون «... وأما شروط هذا المنصب فهي أربعة: العلم... فأما اشتراطه العلم

قسمها إلى طبيقات فأحلها وإلى خباث فحرّمها، ولا يعادله في تفصيل القوانين المشرعة أي شريعة دينية وقانون اجتماعي(14).

-(524)-

وقد أنجز الرسول الأعظم صلّى الله عليه وآله وسلم بنفسه المهام الأساسية في الحكم والإدارة، وتشريع القوانين وتنظيم حياة الفرد والجماعة، يمارس هذا الدور بحكم ولايته الشرعية المطلقة على الناس، وهذا ما يتطلب فيه من القدرة العلمية في تنظيم وتشريع هذه القوانين.

وقال الإمام علي عليه السلام: «يا أيّها الناس إنّ أحقّ الناس بهذا الأمر أقواهم عليه وأعلمهم بأمر الله»(15).

فالعمل السياسي والفكري النهضوي الذي يستهدف في تحركه إقامة الدولة والمجتمع الصالح يتطلب قيادة إسلامية عالمة بالأحكام والقوانين التشريعية ومصادرها الأساسية، لأن الأحكام والتشريع هو العمود الفقري لجسم الدولة وهو يحدد مسيرتها وإطارها الفكري العام. والفقهاء، العالم هو صمام الأمان لتنفيذ مبادئ الشريعة على أساس قدراته الفقهية التشريعية الفذة حتى لا تتخط مسيرة الدولة في متاهات القوانين الوضعية..

ولهذا فالقرآن الكريم يرفض كل المقاييس والمعايير عدا المعيار العلمي، والقدرة الكفائية في بعث القادة الرساليين قال تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدَ بَعَثَ لَكُم مَّالِكًا قَالَُوا أَمْ نَبِيٌّ لَّهُمْ لَوْ كُنْ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَهْلُ حَقِّهِ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْت سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْهِمْ لَرِزْقِهِمْ وَمِنْهُم مَّن رَّبُّهُمْ يُؤْتِيهِم مِّنْ لَّدُنْهُ مِمَّا يُشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾(16).

فالعمل التغيير الثوري والتجديدي ينطوي على تغيير في المفاصل الفكرية والعقيدية في حياة الناس وهذا ما يستدعي إلى توفير قواعد فكرية، وقوالب عقيدية في تغيير المفاهيم السائدة في حياة هذا المجتمع، أو تلك الأمة، وتلعب القيادة دوراً كبيراً مؤثراً في العمل على توفير الأرضية المناسبة لتأخذ هذه المفاهيم التغييرية موقعها المناسب في حياة الناس، والمسيرة الإلهية حركة واحدة، ذات سلسلة تاريخية ممتدة طويلة وان اختلف الزمان والمكان في بعث الأنبياء، فالحركة واحدة، وغاياتها

الخصوصيات الفكرية تبعاً لاختلاف الأزمنة. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَلِمًا
أَوْحَيْنَا إِلَيْ نُوْحٍ وَالنَّذِيْبِيْنَ مِّنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْ إِبْرَاهِيْمَ
وَإِسْمَاعِيْلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ
وَسُلَيْمَانَ وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ (17).

والعلمية التي نريد ليس أن تتوفر الشخصية القيادية، وأن تكون مستوعبة لكل المعارف والعلوم
الإنسانية والطبيعية، بل الذي نريد هو الإحاطة بعلوم الشريعة الإسلامية، ومعرفة القواعد الكلية
العامّة للتشريع الإسلامي فمن العسير أن يحيط القائد أو الفقيه المرجع بكل العلوم وإن كان يحتاج على
سبيل الإيجاب الجزئي إلى التوفر على بعض العلوم والمعارف الإنسانية حتى يكون قادراً على تطبيق
القواعد التشريعية للفقه الإسلامي من خلال هذه المعرفة.. ولهذا يمكن أن يستعين الفقيه القائد
بالخبرات والاختصاصات العلمية من أبناء المجتمع الذين يرفدونه بالتجارب والخبرات العلمية الحديثة
ليطبق تلك القواعد الكلية العامّة أو يستنتج منها أحكامه الشرعية، لهذا تأتي أهمية هذه الخصوصية
في رفق حركة الأمة بالأحكام الإسلامية المنسجمة مع الواقع الفكري والاجتماعي المعاصر والعام في
الحياة ويحقق معنى الخلافة الإلهية الحقّة على الأرض..

2 - الحس الاجتماعي:

لكل أمة من الأمم، ولكل مجتمع من المجتمعات تقاليد وأعراف اجتماعية سائدة. بل هناك مجتمعاً واحداً
نجد فيه نسيجاً مختلفاً غير متجانس من الثقافة والأعراف بوجود القوميات المختلفة فيه من حيث
اللغة، والثقافة والتمدد، والمعتقدات الدينية والمذهبية والأعراف الاجتماعية التي تتحكم بقومية
دون أخرى في ذلك المجتمع.

وعلى ضوء هذا يتحتم على القائد المثالي أن تكون له إحاطة اجتماعية واسعة من خلال الحس والحركة في
الواقع، فهناك بوناً شاسعاً بين المعرفة الحسية الواقعية من خلال الدراسة الميدانية، وبين المعرفة

هذا الحس الواقعي يمكن ملاحظته من خلال حركة الرسول الأعظم صلّى الله عليه وآله وسلم، وهو يمارس دوره الاجتماعي كقائد للأمة. فقد تولى مسؤوليات القضاء في المدينة بين الناس، ونفذ العقوبات، والتعزيرات والحدود، كما نفذ بعض أصحابه مسائل قضائية عندما تولوا القضاء كالإمام علي عليه السلام الذي تولى القضاء في اليمن.. كذلك معاذ بن جبل، ومعاذ بن نوفل، وأبو موسى الأشعري... (18).

ولهذا فإن الجهل بالواقع، أو فقدان الإحساس بأوضاعه يبعده عنه أولاً ويسلّمه إلى القوى الأخرى.. فيوجهوه في غير الوجهة التي يتجه إليها في عقيدته ودينه ثانياً (19).

وقد وجه القرآن النبيّ الأعظم في أن يكون له حضوراً اجتماعياً فاعلاً ومؤثراً في الوسط الاجتماعي قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَرْأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَامًا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدُوا بِعُقُودِ الَّذِينَ كَفَرُوا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (20).

لأنّ الأسلوب الانزوائي في العمل الفكري والاجتماعي، لا يجعل القيادة لها الدور الكبير في العملية التغييرية، ولهذا فقد أحس الكافرون والمشركون ما لدور النبي صلّى الله عليه وآله وسلم المؤثر في المجتمع، فأخذوا يبحثون عن الأساليب الفاعلة لأبعاده صلّى الله عليه وآله وسلم عن هذا الدور، قال تعالى:

﴿وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْتِيكُمُ الطَّعَامُ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا أَوْ يُلَاقِيهِ إِلَهِهُ كَنزُ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْتِيكُمُ مِنْهَا وَيَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ (21).

وقد أجاب القرآن على هذا الاتهام بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَدِيلًاكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا رَجُلًا يُنذِرُ لَهُمْ لِيَأْتِيَهُمْ كَلِمَةٌ مِنَ رَبِّهِمْ وَخَلَعْنَا بِعَصَاكُمُ اللَّيْلَةَ فَيَذَنُوهَا أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ (22).

ومن هنا يظهر معنى قولهم: (مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق)

-(527)-

يراد منه ان الرسالة لا تجماع أكل الطعام والمشي في الأسواق لاكتساب المعاش فإنها اتصال غيبي لا يجماع المتعلقات المادية، وليست إلاّ من شؤون الملائكة (23) . .

ومن خلال هذا يتضح ان المشركين كانوا يسعون جادين في ممارسة الضغوط النفسية والاجتماعية على الرسول لأبعاده عن الحياة الاجتماعية والقرآن الكريم يدفعه إلى الحضور الاجتماعي الفاعل لممارسة دوره الرسالي والتبليغي بين أفراد المجتمع من خلال حضوره الواقعي المثالي الفاعل لأن طبيعة الإنسان يتأثر بأخيه الإنسان، ويتفاعل معه، يتأثر بتفكيره وبأخلاقه، وسلوكه، ويستمتع إلى ما يقوله من الحق والصدق لهذا أخذوا يحاولون عزل النبي صلّى الله عليه وآله وسلم عن الأمة بإثارة بعض الشكوك وانتحال بعض الشبهات لأبعاد الناس عنه صلّى الله عليه وآله وسلم، حتى ان الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام حذّر واليه في مصر من مغبة الإطالة في الاحتجاب عن الناس إذ قال عليه السلام: «وأما بعد فلا تطولن احتجابك عن رعيتك فان احتجاب الولاة عن الرعية شُعة من الضيق وقلة علم بالأمور، والاحتجاب منهم يقطع عنهم علم ما احتجبوا دونه فيصغر عندهم الكبير، ويعظم الصغير، ويقبح الحسن، ويحسن القبيح ويشاب الحق بالباطل» (24).

وإذا كان القرآن الكريم قد دفع بالقيادة الإسلامية إلى عمق المجتمع فانه لم يطلب منها الحضور الاجتماعي فحسب بل أكد على وجود الرابطة والتفاني والإيثار بين القيادة والأمة لأنّ الأمة عندما تتحسس وجود حالة التفاني والإيثار والسلوكية الأخلاقية العالية لدى قيادتها فإنها تنظر بعين الود والاحترام والالتزام بخط ونهج قيادتها، لان القيادة أضحت تعيش الهموم والمعاناة التي تحملها الأمة فلا تنفصل عنها، وقد أكد القرآن في العديد من آياته على تلك الرابطة التي تحكم علاقة الأمة بقائدها من خلال السلوك المثالي للقيادة. قال تعالى: ﴿وَإِطِيعُوا أَمْرَ اللَّهِ وَأَمْرَ الرَّسُولِ وَأَطِيعُوا أَسْرَارَهُمْ﴾ (25).

وقوله تعالى:

-(528)-

لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ (26).

وقوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْغَلَبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (27).

ومن خلال ذلك يتضح إرسال الأنبياء والرسول قادة للأمة، لماذا لم يختار الله ملائكة لأداء هذا الدور الرسالي الخطير؟ وهذه شبهة أثارها المشركون بوجه رسول الله كما مر سلفاً: ﴿وَقَالُوا مَا آلِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْ لَا نُزِّلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾.

ومن الواضح ان الرسول (للإنسان) يختلف جوهرياً عن الرسول (للملك) لان الرسول (للإنسان) يمتلك من مقومات الإنسانية ما يجعله أن يؤثر في الحياة الإنسانية، فيكون القدوة في حياة الإنسان، القدوة في الحركة، القدوة في الفعل، القدوة في العمل، القدوة في التفكير، القدوة في العواطف والأحاسيس، ولهذا فان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لم يأمر قومه بشيء إلا أتمر به قبلهم، ولم ينههم عن شيء إلا ونهى نفسه عنه أولاً لهذا يكون قدوة وأسوة لهم يتأثرون به فهو يأكل كما يأكلون، ويشرب كما يشربون، وينكح كما ينكحون النساء ويحب ويبغض وينام ويمشي، ويتعب فيستراح... وهكذا فان الرسول (للإنسان) تتوفر عنده كل الخصائص والمقومات الإنسانية، مادية ومعنوية معاً، أما الرسول (للملك) فانه يفتقد الكثير من هذه المقومات، لهذا لا يصلح لأداء هذه المهام الاجتماعية الخطيرة فيكون نصيبه الفشل في الميدان لأنه سيواجه نوعاً من المخلوق يختلف عنه جوهرياً. لذا تأتي حكمة وفلسفة بعث الأنبياء كقادة للناس من النوع الذي يتأثرون به ويتأثر بهم، وهذا التأثير بين القيادة والأمة لا يأتي جزافاً، بل يأتي من خلال الحس والروح الاجتماعية التي

تتطبع بشخص القائد الرسالي، فالعزوف أو الاعتزال والهروب من الميدان الاجتماعي نصيبه الفشل والسقوط الفكري والسياسي معاً، لأن الأمة لا تتأثر بإنسان يعيش في الأبراج بعيداً عن همومها مهما أوتي من العلم والمعرفة.. أما الحضور الميداني خصيصة مهمة من خصائص القيادة تدلل رقاب الناس، وتنقاد إليه

يحتاج العمل التغييرى، فى الكثير من الظروف التى يمرُّ بها، وحركة الصراع الذى تمارسه حركة الرسالة الإسلامية، إلى المواجهة والأقدام والشجاعة الميدانية، وهى إحدى متطلبات الخصائص المهمة فى الشخصية القيادية، سواء كان على مستوى العمل الخارجى، والذى يتطلب فى بعض الحالات إلى تلك الجرأة والشجاعة لمواجهة التحديات الخارجية أو على المستوى الداخلى من تقنين وتطبيق الأحكام الإسلامية والذى يتطلب هذا الأقدام والجرأة، ولذلك أمرَّ الله تعالى النبى الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم فى تطبيق الأحكام فى المجتمع المسلم، وعدم التواني والتعاس لاجراءها. قال تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ﴾ وَالزَّانِيَةُ فَاجِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمْ مَا جَاءَهُ جَلْدَةٌ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيْشْهُدُوْا عَذَابَهُمْ مَا طَافَتْهُ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (28).

وقد أمارت الفقهاء المسلمون اللثام عن خصوصية الشجاعة فى شخصية القيادة الإسلامية، وتحدثوا عنها بإسهاب لأهميتها وضرورتها .

قال ابن خلدون: «وأما الكفاية فهو أن يكون جريئاً على إقامة الحدود، واقتحام الحروب بصيراً بها، كفيلاً بحمل الناس عليها، عارفاً بالعصبية وأحوال الدهاء، قوياً على معاناة السياسية ليصح له بذلك ما جعل إليه من حماية الدين، وجهاد العدو وإقامة الأحكام، وتدبير المصالح...» (29).

وقال شارح «المواقف»: «ذو رأي وبصيرة بتدبير الحرب والسلم، وترتيب

—(530)—

الجيش، وحفظ الثغور، ليقوم بأمور الملك شجاع قوي القلب، ليقوى على الذب عن الحوزة، ولحفظ بيضة الإسلام بالثبات فى المعارك» (30).

لذلك فإن بعض الظروف الحركية التى تمرُّ بها حركة الدعوة الإسلامية تتطلب شيئاً من الأقدام والحدية. ولهذا عندما استنفذت أغراض الحوار الفكرى والعقائدى، وأخذ المشركين يواجهون النبى ودعاة الإسلام

باستحداث أساليب القتل والسجن والتعذيب، أمر الله تعالى رسوله في الإعلان عن الدعوة لضرورة الظرف الذي تمرُّ به حركة الإسلام بعدما أضحى أمراً واقعاً في المجتمع لا يحتاج فيه العمل أسلوب السرية والإخفاء، قال تعالى: ﴿وَقُلْ إِنْ زَيْتِي أَنْزَلْنَا النَّذِيرَ الْمُبِينِ * كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ * الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ * فَوَرَّيْكَ لَنْسَأَلَنَّ هُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ * إِنْ زَيْتَا كَفَيْتَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ * الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْمَلُونَ * وَلَقَدْ زَعَلِمُ أَنْزَلْنَاكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ (31).

وهذا الأقدام والتحدى نتلمسه في شخصية إبراهيم عليه السلام عندما استنفذ جميع الأغراض السلمية، رأى من الحكمة المواجهة لكسر طوق العزلة الذي يحاول الظالمون والمتطرفون فيه، الوقوف بوجه الرسالة، ولهذا قال لهم إبراهيم عليه السلام - كما جاء النص في القرآن: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ * فَجَعَلَهُمْ جُذُوزًا إِسْلَافًا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّ لَهُمْ إِيْلَئِيهِ يَرْجِعُونَ * قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِِنَّ زَيْتَهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا سَمِعْنَا فَتَى يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ * قَالُوا فَأُتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّ لَهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ (32).

ولا يعني هذا ان العقيدة الإسلامية تدعو إلى العنف وممارسة القوة في نشر دعوتها وهذه شبهة وجهها الاستعمار الحديث إلى الدين الإسلامي، بل ان الإسلام هو دعوة للحوار العقيدي من خلال الأدلة والبراهين المنطقية دون ممارسة الضغط والقول وهذا هو الشعار

-(531)-

الذي يرفعه لممارسة الكلمة الطيبة والحوار الهادف بالحكمة والموعظة الحسنة، بيد ان ظروف هذه الكلمة، حاول أعداء الإسلام مواجهتها بالقوة وممارسة الظلم، هذا ما شهدته رسالات السماء في الكثير من العصور، لذلك كانت الدعوة بحاجة إلى القوة والاستعدادات للدفاع عن أسلوب الحوار العقائدي والفكري. لأن المجتمع الإسلامي قائم على أساس «العدالة»، ويحمل رسالة العدالة، فهو بطبيعة الحال معرض للعدوان بالإضافة إلى ملاحظة أن العدوان طبيعة ثابتة في الدول ذات الأنظمة والفلسفات المادية والضالة.. ولذا ففي حين ان مبادئ السلام، والحوار، والتعايش، والتعاون مع الآخرين، سمات ثابتة في تكوين المجتمع الإسلامي فانه - بسبب استهدافه للعدوان من القوى الخارجية - يستعد للحرب الرادعة

ولهذا فرض ﷻ تعالى على المسلمين الاستعداد والتهيأ لمواجهة أي عدوان يفرضه الطرف الذي يعيشه الإسلام مع القوى الضالة قال تعالى: ﴿وَإِعْدُوا لَهُمْ مِمَّا اسْتَطَعْتُمْ مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمِمَّا تُوَفَّقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُؤَفَّقُ لِيَلَيْكُمْ وَالْأَنزَامُ لَا تُظْلَمُونَ﴾(34).

ولهذا نجد العديد من النصوص الحركية في القرآن الكريم تدعو القيادة الإسلامية إلى ممارسة العمل الميداني من خلال الأقدام في مواجهة أي تحدي عدواني على مستوى مشاكل الداخل التي تواجه المجتمع المسلم، وتعمل على هتك حرمة النظام والقانون الإسلامي، لذا جاءت أهمية توفر عامل الشجاعة بالنسبة للقائد الإسلامي في مواجهة ذلك. كذلك عندما ندرس التاريخ الإسلامي دراسة واعية فإننا سنجد على مواقف كبيرة وقفها الرسول الأعظم صلى ﷻ عليه وآله وسلم وأصحابه في مواجهة هذه التحديات التي يمكن الاستعانة بها في حركة الإسلام الحديث وهو يواجه التحديات في العصر الحاضر كمنطلق في حركة العقيدة والفكر السياسي الإسلامي.

—(532)—

4 – الانفتاح وبناء العلاقات:

الإسلام رسالة عالمية شمولية لجميع أبعاد الحياة، لا يختص بإقليم معين، وليس يعيش الحالة الطائفية الضيقة، لهذا فإن ﷻ تعالى قد خاطب رسوله، بأنه رسولاً للناس جميعاً: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً...﴾(35).

وهذا الانفتاح الرسالي الشامل خصوصية ذات معنى سياسي وعقائدي لاستيعاب والتأثير على كل الأقطاب والمحاور التي تعيش الحالة غير الإسلامية، وهذا ما يتطلبه العمل الرسالي والقيادة الرسالية من توفير كل مقومات الانفتاح الفكري والسياسي على تلك الأقطاب والمحاور لبناء العلاقات السياسية والفكرية وفق الضوابط والأسس الإسلامية الصحيحة حتى ان الرسول الأعظم صلى ﷻ عليه وآله وسلم «وضع.. أسس العلاقات الخارجية مع الأقوام والدول الأخرى. فأنشأ علاقات مع نصار(نجران) وبعض القبائل. وأوفد السفراء إلى الدول الأجنبية(مصر، وفارس، وبيزنطية، والغساسنة) وغيرهم. وعقد المعاهدات، وهادن بعض

الجماعات، والقبائل، ورفض الهدنة مع البعض الآخر(36).

فالإسلام يملك رؤية واعية لدراسة وبناء العلاقات الدولية، لأنه يحمل أهم أيديولوجية عالمية واسعة، لأنه ينظر إلى الناس جميعاً نظرة إسلامية وإنسانية واعية قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (37).

ويقول أحد المستشرقين: «ان الإسلام ترسخ، بطموحه لحمل الشريعة النهائية، وإصلاح النظام الكوني. أيديولوجية عالمية. وكان على العالم الإسلامي الخاضع لشريعة إلهية صريحة ذات دعوة عالمية، أن يحدد نمط العلاقات التي كان في وسعه عقدها مع الأمم المجاورة..»(38).

وقد وجه القرآن الكريم رسوله الكريم في تأسيس مبدء الحوار الفكري ومد

-(533)-

جسور العلاقات العقائدية مع الفكر الآخر رغم الاختلافات الأيديولوجية، وفق الضوابط والموازن الشرعية قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ - وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (39).

«وأنها لدعوة منصفة من غير شك، دعوة لا يريد بها النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يتفضل عليهم هو ومن معه من المسلمين.. كلمة سواء يقف أمامها الجميع على مستوى واحد لا يعلو بعضهم على بعض، ولا يتعبد بعضهم لبعضاً..»(40).

وهذه الانطلاقة القرآنية تحدد طبيعة الانفتاح الفكري، وتنظيم أسس العلاقات الخارجية مع القوى الفكرية الأخرى، خصوصاً إذا كانت تحمل متبنيات فكرية ذات قواسم مشتركة مع الفكرة الإسلامية، وإن اختلفت في بعض الأطر والوظائف والمباني الفكرية فإنها تلتقي في مفهوم التوحيد كركيزة أساسية في العلاقات الدينية والمذهبية.. «وبذلك نبتعد عن أجواء التعصب الذي يتجمد فيه الإنسان أمام قناعاته ولا يتحرك خطوة واحدة إلى الأمام في مجال المناقشة والحوار، بل يعمل على المحافظة، بكل ما في طاقته على

مواقفه الفكرية والعملية، و بروح متمزته حاقدة ويمكننا في هذا الاتجاه أن نلتقي بالأساليب الهادئة المتزنة التي تحتفظ بأفكارها عندما نحتفظ بها من موقع الانفتاح على الأفكار الأخرى ومناقشتها لحساب وتحصيل القناعات من خلال ذلك كله.»(41).

وقد ولدت القناعات القرآنية في أن تبعث الرسول إلى مخاطبة فرعون الذي كان يتمشرك بالألوهية الواهية لتثبت قاعدة سياسة الانفتاح رغم وجود الحواجز النفسية قال تعالى كما في قصة موسى عليه السلام: ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ آلِ لُوطِ لَعَلَّكَ تَلْمِزُهُمْ فِي مَنَاجِرِهِمْ فَاتَّقِ اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (42).

وفي موضع آخر من القرآن:

-(534)-

﴿اذْهَبْ إِلَىٰ آلِ لُوطِ لَعَلَّكَ تَلْمِزُهُمْ فِي مَنَاجِرِهِمْ فَاتَّقِ اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (43).

وهنا تكمن من خلال هذه النظرة القرآنية في تحديد ملامح ومقومات السياسة الانفتاحية لبسط النفوذ وإيصال الكلمة الرسالية الهادفة في بناء العلاقات، والتخلص من الموانع والحواجز التي تقف دون ذلك، وهذه خصوصية من خصائص القيادة الإسلامية المنفتحة على الواقع لترشيد وتكوين المفهوم الإسلامي الواعي لإنجاز هذه المهام.. والتخلص من النظرة الضيقة، والتشويه المتعمد الذي يثيره خصوم الإسلام تجاه الدعوة والعنصر الضيق في حركته.

المبحث الثاني:

الملاح الأخلاقية العامّة

وفي هذا المبحث نريد التركيز على بعض الخصائص الخلقية المهمة المتكونة في شخصية القائد الرسالي، والتي تترك أثراً إيجابية فاعلة في حياة الأمة ومنها:

1 - المحبة:

أسلوبه الرقيق الذي يتفايض بالأحاسيس الطيبة والمشاعر الطاهرة، والنبضات الرحيمة.. فلا تتحرك كلماته من موقع قوة لتؤذي المشاعر،

—(536)—

ولا تنطلق من حالة فظاظة لتدمي الإحساس، بل هو اللين والرحمة والعطف والعاطفة والحميمة التي تدخل إلى القلوب بكل عفوية وبساطة ومحبة..»(50).

وإذا كان قلب الرسول صلياً □ عليه وآله وسلم يحمل تلك المحبة والعاطفة تجاه أمته فإن الأمة ستنقاد إليه، مادامت تتحسس تلك العاطفة الرحيمة الودودة، لهذا فالقرآن يوجه الأمة في الانقياد والطاعة للرسول والالتفاف حول قيادته الرشيدة الواعية قال تعالى: □لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا □ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرُوا □ كَثِيرًا □(51).

وقوله تعالى: □يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّهُ اللَّهُ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنزَلَهُ إِلَيْهِ تُوحَّشِرُونَ □(52).

وبدون هذه العاطفة وذلك الحنان فإن الأمة ستتمرد على قيادتها عندما تحس منها الغلظة والخشونة والقسوة في المعاملة، فالقرآن يريد أن يوجد رابطة محكمة بين القيادة والقاعدة من خلال هذه المشاعر والعواطف والتي ستترك آثارها الإيجابية في حركة الصراع قال تعالى: □وَإِخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَإِنِ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّي بِرَبِّعٍ مَّمَّانٍ تَعْمَلُونَ □(53).

وقد جسّد الإمام علي هذا المعنى في خطابه السياسي لعامله على مصر إذ قال عليه السلام: «واشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللفظ بهم، ولا تكون عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم، فانهم صنفاً إمّا أخٌ لك في الدين وأما نظير لك في الخلق يفرط بينهم الزلل، وتعرض لهم العلل وتؤتى على أيديهم في العمد والخطأ فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب أن يعطيك □ من عفوه وصفحه..»(54).

—(537)—

أما البُعد الأخلاقي الآخر الذي يلعب دوراً خطيراً في عملية التغيير الاجتماعي هو الأسلوبية، وآليات التخاطب الفكري والسياسي، والذي يستدعي توفرها في الشخصية القيادية، من خلال الأسلوب المنسجم مع الخط الإسلامي بصورة عامة، حتى أن القرآن الكريم استعمل مفهوم الحكمة في هذا التعامل والتخاطب. قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (55).

وهذا النص القرآني يريد أن يقول ابحثوا عن أدوات التخاطب من خلال الدليل والبرهان المنطقي، والأسلوب الذي يكسب العدو ولا ينفره من الدين الإسلامي، كما أن القرآن يطالب المعاندين والجاحدين لمنهج الرسالة إبداء دليلهم في القضايا التي يطرحونها «قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين» فانه يوجه المسلمين إلى الالتزام بهذا المبدأ الفكري العام للوصول إلى الأهداف العليا في حركة الإسلام، لذلك دعى إلى الابتعاد عن أسلوب الخشونة والغلظة كما مرّ سلفاً قال تعالى: ﴿فَيَمَّا رَحِمْتَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِن لَّ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَنفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (56).

فالآلية، الناجحة في التخاطب الفكري والسياسي قد تفتح الطريق أمام العقد والحواجز التي تعمل على إبعاد الناس عن الفكرة الصحيحة، لهذا أمر القرآن النبي الأعظم أن يفتح قلبه وأحاسيسه للمشركين الذين حاربوه لان هؤلاء قد يعيشون البعد وعدم النضوج العقائدي لتقبل الفكرة الإسلامية وعن طريق هذا الانفتاح الواسع قد يهتدي الإنسان به إلى الصواب قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنْزَلْنَاهُمْ قَوْماً لَّا يَعْلَمُونَ﴾ (57).

-(538)-

فالقرآن يوجه القيادة الإسلامية في أن تهيأ أجواء الأمان والطمأنينة للعدو ليكسب العقول والنفوس من خلال آلية خطابية تعتمد الذكاء والمرونة، والانفتاح، رافطاً الانفعالية، وهذا معناه انه يفتح الطريق أمام خصومه ليطرحوا الأفكار والمباني التي تزخر بها عقائدهم. فلا ينفعل أو تسري إلى نفسه روح

الانهزامية الفكرية، مادام يعتمد في أسلوبه ومنهجه على القدرة الإلهية المطلقة التي تزوده بكل أدوات المعرفة واليقينية للخط الذي سار عليه. ولهذا يدعو القرآن إلى الصبر وعدم إبداء الضيق قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَعَلِمُ أَنْزَلَكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ (58).

وقوله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِن لَّا يَهْتَدِ مَن يَشَاءُ وَيَهْتَدِ مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبُ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِن لَّا لِلَّهِ عِلْمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (59).

والقرآن الكريم يريد أن يضع الرسول أمام هذه الحقائق والسنن الاجتماعية، فالتجرد والرفض والعناد والمكابرة مفاهيم متأصلة في سلوك المجتمعات فهي بحاجة إلى التروي والحكمة والأسلوبية للتخلص منها بلا مجافاة أو لا بألية تعمل على هتك حرمة العلاقات الاجتماعية أو تُنفِر المجتمع من قيادته ولهذا نجد الإمام علي عليه السلام يوصي أحد ولاته بالموازنة والسلوكية المنضبطة عند مواجهة الناس فيقول عليه السلام: «واخفض للرعية جناحك وألن لهم جنبك وآس بينهم في اللحظة والنظرة» (60).

3 - التواضع:

وهذه من أبرز الخصائص الأساسية في الفكر السياسي الإسلامي، فالتواضع يعمل على تأسيس وتكوين قوة اجتماعية كبيرة تلتف حول القيادة الإسلامية، حتى أن القرآن الكريم وسيرة الرسول وأهل بيته ركزت على هذه الخصيصة لأهميتها ودورها الاجتماعي

-(539)-

الكبير. وقد جاءت الخطابات القرآنية مرّة بصفة عامة، تخاطب الجماعة الإسلامية المؤمنة. كما في قوله تعالى: ﴿وَاعْبَادُوا الرَّسُولَ الَّذِينَ يَمْسُحُونَ بِالْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذًا خَاطِبَهُمْ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ (61).

وأخرى خصمت النصوص القرآنية خطابها بتوجيهه مباشرةً إلى الرسول صلياً عليه وآله وسلم قال تعالى: ﴿وَإِخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (62).

وهناك نصوص قرآنية أخرى تناولت مفهوم التواضع بشكل واضح وصريح داعية الجماعة الإسلامية الواعية إلى التحلي بهذا المفهوم قال تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ (63).

وفي وصية لقمان الحكيم لابنه:

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّاهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ (64).

وقد حذر أمير المؤمنين علي عليه السلام أحد ولاته من الإعجاب بالنفس، وحب الإطراء والتمرد الخلقي قائلاً: «وإياك والإعجاب بنفسك والثقة بما يعجبك منها وحب الإطراء، فإن ذلك من أوثق فرص الشيطان في نفسه ليمحق ما يكون من إحسان المحسنين، وإياك والمسن على رعبتك بإحسانك، أو التزيد فيما كان من فعلك» (65).

والوالي يعتبر في موضع القائد والممثل الشرعي للخلافة الإسلامية، فلا بد أن تتوفر فيه خصال التواضع وخفض الجناح ليشكل هذا المفهوم بُعداً أخلاقياً تأثيراً على نفوس الناس فتلتزم الطاعة والانقياد للوالي أو الخليفة، لذا ركز أمير المؤمنين على هذا البعد

–(540)–

الأخلاقي..

المبحث الثالث:

البناء الفكري والاجتماعي

1 – بناء الأمة عقائدياً:

تحتل المسألة العقائدية والفكرية موقعاً مهماً في حياة الأمة. فكل مجتمع له تركيبة عقائدية،

وقاعدة فكرية ينطلق من خلالها في حياته وحركته، وهذه العقائد أو الأفكار هي التي يتكون منها تاريخ وحضارة الأمة. والإسلام أراد أن يعالج واقع الإنسان على ضوء ما آمن من المثل والقيم في منهجه كطريق للحياة، ودون الاعتماد على الأفكار الأخرى، كي يحافظ على سلامة المجتمع من الأفكار الأخرى، فيسعى إلى تأطير المجتمع بسياج فكري متين للتخلص من مشارب الأفكار المادية الضالة. ولهذا أخذ الإسلام يهتم ببناء المجتمع الإسلامي بناءً عقائدياً وفكرياً من خلال مؤسساته ومعاهده الفكرية التي تخضع لسلطة الولي الفقيه، والفائد الإسلامي النموذجي لهذا فالإسلام لم يعمل لإصلاح الإنسان دون إصلاح المؤسسات الاجتماعية.. كما فعلت المذاهب والدعوات الحديثة ففشلت وإنّما أصلح الواقع والإنسان معاً (66).

لذا ركزت كل دعوات الأنبياء على مسألة الإصلاح الفكري والعقائدي. قال تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَيَّ بِدِيْنًا فَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِيْلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (67).

وقوله تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأْتَمَمْنَا هَا هَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرَأَيْتُمْ لِيْلَةَ وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (68).

وعن الإمام الحسين عليه السلام قال: «اللهم انك تعلم انه لم يكن الذي كان منا تافساً في سلطان ولا التماساً من فضول الحطام ولكن لنري المعالم من دينك ونظهر الإصلاح في بلادك، وبأمن المظلومون من عبادك..» (69).

ولهذا تظهر فلسفة بعث الأنبياء والمصلحين في تاريخ البشرية، ان هناك وضعاً اجتماعياً وعقائدياً فاسداً بحاجة إلى التغيير والإصلاح وهذا يتم من خلال قطبين أساسيين في العملية التغييرية. القطب الأول: وهو عملية هدم الأفكار الفاسدة، والقضاء على كل ألوان التخلف الفكري والاجتماعي، والثاني هو ممارسة العمل الفكري من خلال وضع المناهج الدراسية الواعية، لأن المجتمع لا يمكن أن يكن يعيش في فراغ فكري، والإسلام كعقيدة تملك مقومات ملئ هذا الفراغ، ومن الطبيعي إن العمل العقائدي والبنوي يواجه مشاكل فكرية واجتماعية كبيرة وشاقة. لأن عملية هدم الأفكار والمخلفات الاجتماعية قضية ليست بالسهولة القضاء عليها، كذلك وضع الأدوات العقائدية الجديدة بحاجة إلى النفس الطويل الذي تتمتع بها القيادة الإسلامية التي تمتلك الدولة فتعمل من خلال مؤسساتها الثقافية الواعية على ترشيد حركة الفكر والبناء العقائدي للأمة، لهذا دعي القرآن الكريم الرسول صلّى الله عليه وآله وسلم إلى الصبر

والاستقامة في طريق المعاناة: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا ۗ إِنََّّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (70).

﴿إِنَّهُمْ يُرَوُّونَهُ يُعِيدُونَ * وَنَرَاهُ قَرِيْبًا﴾ (71).

وقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعِزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَّهُمْ كَأَنْتَ أَهْمُهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبِثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ بَلَّغْ فَهَلْ لَّكَ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (72).

وفي هذا الخطاب دعوة إلى النبي في الاستمرارية في خط الأنبياء والرُّسل، لهذا يظهر من خلال ذلك ما للمشاكل من دور كبير في تثبيت القيادة، ومحاولة شل حركتها السياسية، لهذا فهي بحاجة إلى المواصلة في الطريق لتكوين بنية تحتية ذات بُعد عقائدي وفكري لتحسين المجتمع..

-(542)-

2 - الرقابة والميانه الاجتماعية:

أما الرقابة وصيانة الحقوق والواجبات الاجتماعية تُعدُّ من أساسيات النظام السياسي الإسلامي، وقد بذل الإسلام جهوداً حثيثةً في سبيل ضمان الحقوق الفردية والاجتماعية للمجتمع، وعلى سبيل المثال، اننا عندما ندرس النصوص النبوية، فان هناك اهتماماً واضحاً من قبل الرسول الأعظم لتنظيم الاقتصاد الإسلامي وتطبيقه في مجالات متعددة حتى لا يتم استغلال واحتكار البضائع من قبل المتلاعبين بالسوق..

روى الطبراني أن النبي صلّى الله عليه وآله وسلم أقرَّ اختيار موضع في المدينة ليكون سوقاً لها: وقال: «نعم سوقكم هذا، فلا ينقص ولا يضرين عليكم خراج» (73).

«والظاهر ان المراد من الخراج ضريبة الانتفاع بالسوق، فدلَّ على أن السوق من المرافق العامة التي ينتفع بها مجاناً..» (74).

«والظاهر أنه صلّى الله عليه وآله وسلم كان يعهد إلى بعض النساء أن يتولين مراقبة النساء البائعات، ومسلكنهن في السوق التي تختلط فيه النساء بالرجال، وقد يحصل نتيجة ذلك بعض ما يخالف الشرع والآداب

«ويظهر من الأخبار الكثيرة التي رويت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في تحريم الاحتكار، وذمه، والنهي عنه، ولعن المحتكرين، ان ظاهرة الاحتكار كانت شائعة في المدينة، وغيرها في الدول الإسلامية.. وإنها تكررت في عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم مرات عدة..» (76).

وفي رسالة الإمام علي عليه السلام إلى مالك الأشر، لما أراد توليته على مصر أمره عليه السلام أن يردع المحتكرين، ويقف أمام تصرفاتهم بحزم وقوة. إذ قال عليه السلام: «.. فامنع من الاحتكار، فان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منع منه، وليكن البيع بيعاً سمحاً بموازين عدل، وأسعاره لا تجحف بالفريقين، من البائع والمبتاع، فمن قارف حكره، بعد نهيك إياه، فنكل به، وعاقبه من غير إسراف..» (77).

هذه النصوص التاريخية، تدلل على الذهنية الاجتماعية التي تتحرك من خلالها

-(543)-

القيادة الإسلامية، المتجسدة بشخص الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، أو الإمام علي عليه السلام لتنظيم الحياة الاقتصادية في المجتمع على أساس المتابعة الميدانية اليومية لوضع حداً للتلاعب بالشؤون الاقتصادية العامة التي تحرك اقتصاد المسلمين آنذاك، وهذا ما يمكن فهمه من خلال بعض اللقطات الفكرية للقرآن الكريم كما في حركة نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم قال تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ مَدَّ يَدًا أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَاتٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَفْسُدُوا فِي الْأَرْضِ بِعَدْوٍ مِّنْكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مِّنْ مِّنِّينَ﴾ (78).

وقوله تعالى: ﴿... فَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَفْسُدُوا فِي الْأَرْضِ...﴾ (79).

فقد كان أصحاب الأموال والتجار يستغلون المستضعفين، ويتعدون على حقوقهم من خلال التطفيف كحالة لها ترويج لا يستند إلى أي قاعدة ومنطلق صحيح لهذا أراد شعيب أن يكون ويحقق معنى العدالة الاجتماعية في

الجانب الاقتصادي الذي هو عصب حياة الناس والذي تستوفي منه الدقة في المتابعة والصيانة الذي يتحرك من خلالها القائد الرسالي لتثبيت أوامر الأخوة وتحقيق العدالة..

أو اننا عندما نقف عند حركة نبي الله ﷺ لوط عليه السلام ودوره الكبير لقطع مادة الفساد الاجتماعي الذي كان يمارسه قومه دون رادع إذ قال لهم: «... أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ * إِنَّ زَنْجُومَ لَلَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الرَّجَالِ الَّذِينَ جَالُوا فِيهَا لَشَهْوَىٰ مِّنْ دُونِ الذِّسَّاءِ بِأَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ» (80).

فالإسراف والتعدي الخطير لهذا المرض الاجتماعي يتطلب من القيادة العقائدية الموقف الرسالي الحازم لفرض صيانة عقائد الناس وتنظيم حياتهم الأخلاقية والاجتماعية، لأنها قد تتعرض في بعض الظروف لحالات الانهيار بعدما تداخلت فيها بعض الثقافات

-(544)-

المادية المنحرفة واننا عندما ندرس حالة المجتمعات الغربية التي أطلقت الحريات سواء كان في جانبها الاقتصادي أو الجنسي، فإن مجتمعاتها لا زالت تعيش مشاكل مادية ونفسية جسيمة، والتي تثير حولها المشاكل الاجتماعية الفكرية نتيجة لهذه الانحلالية والإباحية المطلقة والتي تستدعي إلى الصيانة وتنظيم العلاقات على ضوء الأسس الصحيحة والسليمة لضمان حياة مجتمع أفضل.

3 - المساواة والعدالة:

عانت البشرية منذ فجر تاريخها الطويل الكثير من ألوان الظلم والطغيان نتيجة لممارسات الحكام الظلمة عبر هذا التاريخ، لهذا كانت البشرية بحاجة ماسة إلى العدل والمساواة بين أفراد المجتمع الواحد، وهذا ما يتطلب وجود حاكم عادل لقيادة البشرية نحو شاطئ الأمان. ومن أهم الشروط لتولي منصب القيادة العامة للمسلمين أن يكون الحاكم عادلاً في تطبيق مفهوم العدالة الاجتماعية، وخلق جو المساواة بين أفرادها.. قال القلقشندي الشافعي من ضمن ما ذكر من شروط في صفة الحاكم: «العاشر العدالة: فلا تنعقد إمامة الفاسق، وهو التابع لشهوته، المؤثر لهواه من ارتكاب المحظورات والأقدام على المسكرات، لأن المراد من الإمام مراعاة النظر للمسلمين، والفاسق لم ينظر لنفسه في أمر دينه، فكيف ينظر في مصلحة غيره!» (81).

وقال عبد القادر البغدادي «والثاني - العدالة والورع وأقل ما يجب له من هذه الخصلة أن يكون ممن يجوز قبول شهادته تحملاً وأداءً» و«كما يستفاد من روايات اشتراط العدالة فيما إمامة الجماعة فلئن كانت العدالة شرطاً في الإمامة لصلاة الجماعة فما ظنك بإمامة الأمة في حلها وترحالها والتصرف في مقدراتها، وتؤيد هذا الشرط رواية سدير» (82) (83).

والرواية مروية عن أبي جعفر عليه السلام إذ قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: لا تصلح الإمامة إلا

-(545)-

لرجل فيه ثلاث خصال: ورع يحجزه عن معاصي الله، وحلم يملك به غضبه، وحسن الولاية على من يلي حتى يكون لهم كالوالد الرحيم» (84).

من الأولويات والمهام الأساسية التي تكون مورد اهتمام القيادة الإسلامية هي إقامة العدل، وتحقيق المساواة الاجتماعية بين أفراد المجتمع الواحد، وهذه الخصوصية تعد من أساسيات وجود الدولة الإسلامية قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْزَلْنَاهَا لِتُذَكَّرَ بِهَا الْقُلُوبُ الْغَافِلِينَ﴾ (85).

وهذه هي القاعدة والمنطلق لأصول الحكم وأخلاقيته في المفهوم الإسلامي فلا يحق للقائد التجاوز على الحدود الشرعية والقواعد الأساسية في الفكر الإسلامي، لأن هناك رقابة إلهية مستمرة ترقب تحركات الرسول، أو الإمام، أو القائد الفقيه، وتسدده في خطواته ما دامت تنسجم مع الخط الإسلامي الصحيح.

ففي حديث للإمام الصادق عليه السلام عن أمير المؤمنين عليه السلام: إذ قال لعمر بن الخطاب: «ثلاث إن حفظتهن وعملت بهن كفتك ما سواهن وإن تركتهن لم ينفعك شيء سواهن قال: وما هن يا أبا الحسن؟ قال: «إقامة الحدود على القريب والبعيد والحكم بكتاب الله في الرضا والسخط والقسم بالعدل بين الأحمر والأسود» قال عمر: لعمرى لقد أوجزت وأبلغت» (86).

فإقامة العدل ركيزة من ركائز الإسلام. لأنها تعزز وحدة الأمة، وتذوب شخصيتها في الكيان الإسلامي الذي تجسد القيادة الإسلامية الواعية وجوده من خلال الخصائص الأساسية لقيام الدولة الإسلامية، وتحقيق معنى المجتمع الإسلامي الصالح.

ان استجلاء الخصائص الأساسية والصفاء العامة للقيادة الإسلامية في واقعنا

(546)

المعاصر المستوحاة من القرآن الكريم وحركة الرسول صلّى الله عليه وآله وسلم لها أهميتها الأساسية في الفكر الإسلامي، وهذا يتم من خلال نجاح وتجسيد معنى الدولة الإسلامية التي ترسي قواعد أساسية وتطبيقها على أساس العقيدة الإسلامية، لذلك أضحت القيادة الإسلامية والحكومة ذات أهمية بالغة في التاريخ والفكر الإسلاميين، وهي الإطار السياسي العام والمنظومة التي تحاكي الواقع الإنساني لحياة المسلم وتنظم حياته على أساس الإسلام..

ولا يفوتنا القول ان هناك إرهابات سياسية وأيديولوجية انفجرت في العقدين الأخيرين من حياة المسلمين مثلته في المقدمة انفجار الثورة الإسلامية في إيران، وتحركات المسلمين في معظم البلاد الإسلامية، والذي مهدت له الثورة الإسلامية بإقامة أول نظام إسلامي ذا بُعد سياسي وفكري وعقائدي أصيل.

هذه الإرهابات السياسية أخذت تدعوا إلى قيام نظام إسلامي مشابه في إيران، وان اختلف في بعض الخصوصيات. وهذا ما يحتاج بدوره إلى قيادة إسلامية واعية، وذا كفاءة عالية في الإدارة والتنظيم مما يستدعي إلى توفر خصوصيات وشروط موضوعية لهذه القيادة الإسلامية لتطبيق القاعدة الإسلامية وفق المنهج الإسلامي الصحيح.

وذكر هذه الخصوصيات في البحث الآنف الذكر لا يعني اننا استوعبنا تمامية البحث فلعل هناك بعض الخصوصيات المهمة والتي بحاجة إلى دراسات إسلامية واسعة، والتي يتم من خلالها دعم العمل الفكري والسياسي الإسلامي، ووضع مناهج فكرية أساسية في طبيعة التحرك لإقامة النظام الإسلامي الشامل.

الهوامش

2 – سورة الأعراف: 69.

3 – سورة النور: 55.

4 – شمس الدين، محمد مهدي، في الاجتماع السياسي الإسلامي، ص 278.

5 – الصدر، محمد باقر، الإسلام يقود الحياة، ص 142.

6 – المصدر السابق، ص 141.

7 – الطباطبائي، محمد حسين، الميزان، ج 23 ص 194.

8 – سيد قطب، في ضلال القرآن، ج 1 ص 56.

9 – سورة البقرة: 124.

10 – ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، مقدمة ابن خلدون ص 193.

11 – البغدادي، عبد القاهر بن طاهر، أصول الدين، ص 277.

12 – التمهيد في الرد ص 293 عن نظام الحكم والإدارة في الإسلام، شمس الدين محمد مهدي ص 156.

13 – سورة الأعراف: 157.

14 – الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن ج 8 ص 280.

15 – نهج البلاغة.

16 – سورة البقرة: 247.

17 - سورة النساء: 162.

18 - شمس الدين، محمد مهدي، في الاجتماع السياسي الإسلامي، ص 167 - 168.

19 - فضل الله، محمد حسين، خطوات على طريق الإسلام، ص 165.

-(548)-

20 - سورة الأنعام: 68.

21 - سورة الفرقان: 7 - 8.

22 - سورة الفرقان: 20.

23 - الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ج 15 ص 184.

24 - مغنية، محمد جواد، في ظلال نهج البلاغة، ج 4 ص 104.

25 - سورة الإنسان: 8.

26 - سورة التوبة: 128.

27 - سورة آل عمران: 159.

28 - سورة النور: 2.

29 - ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، مقدمة ابن خلدون ص 193.

30 - الجرجاني، علي بن محمد، شرح المواقف ج 8 ص 349.

31 - سورة الحجرات: 89 - 97.

32 - سورة الأنبياء: 57 - 61.

33 - شمس الدين، محمد مهدي، في الاجتماع السياسي الإسلامي ص 111.

34 - سورة الأنفال: 60.

35 - سورة الأعراف: 158.

36 - شمس الدين، محمد مهدي، في الاجتماع السياسي الإسلامي ص 169.

37 - سورة الحجرات: 13.

38 - بوازار مارسيل، إنسانية الإسلام ص 220.

39 - سورة آل عمران: 64.

40 - قطب، سيد، في ظلال القرآن ج 1 ص 406.

41 - فضل ا□، محمد حسين، من وحي القرآن ج 6 ص 46.

42 - سورة طه: 43 - 44.

-(549)-

43 - سورة طه: 24.

44 - سورة الكهف: 6.

45 – سورة فاطر: 8.

46 – سورة يوسف: 103.

47 – سورة التوبة: 128.

48 – سورة آل عمران: 159.

49 – سورة القلم: 4.

50 – سورة الأحزاب: 21.

51 – سورة الأحزاب: 21.

52 – سورة الأنفال: 24.

53 – سورة الشعراء: 215 – 216.

54 – مغنية محمد جواد، في ظلال نهج البلاغة ج 4 ص 48.

55 – سورة النحل: 125.

56 – سورة آل عمران: 159.

57 – سورة التوبة: 6.

58 – سورة الحجر: 97 – 98.

59 – سورة فاطر: 8.

60 – مغنية، محمد جواد، في ظلال نهج البلاغة ج 4 – ص 24.

61 – سورة الفرقان: 63.

62 – سورة الشعراء: 215.

63 – سورة الإسراء: 37.

64 – سورة لقمان: 18 – 19.

65 – مغنية، محمد جواد، في ظلال نهج البلاغة ج 4 – ص 118.

–(550)–

66 – الصدر، محمد باقر، رسالتنا، ص 100.

67 – سورة هود: 88.

68 – سورة الأعراف: 142.

69 – تحف العقول 173، البحار ج 100 ص 81.

70 – سورة هود: 112.

71 – سورة المعارج: 5 – 7.

72 – سورة الأحقاف: 35.

73 – التراتيب الإدارية، 2: 163، عن نظام الحكم والإدارة، شمس الدين محمد مهدي ص 592.

74 - شمس الدين، محمد مهدي، نظام الحكم والإدارة في الإسلام ص 592.

75 - المصدر السابق: 593.

76 - المصدر السابق: ص 594.

77 - نهج البلاغة ج 3 ص 100.

78 - سورة الأعراف: 85.

79 - سورة الأعراف: 85.

80 - سورة الأعراف: 80 - 81.

81 - القلقشندي، مآثر الأناقة في معالم الخلافة، ج 1 ص 36.

82 - البغدادي، عبد القادر بن طاهر، أصول الدين ص 277.

83 - الحائري، كاظم، أساس الحكومة الإسلامية ص 60.

84 - الحائري، كاظم، أساس الحكومة الإسلامية ص 159 عن أصول الكافي.

85 - سورة النساء: 105.

86 - الحر العاملي، محمد بن الحسن، وسائل الشيعة ج 18 ص 156 عن كتاب الحياة ج 2 ص 425 للحكيمي.